المحاضرة الثالثة

2- الأصول المرجعية للفكر التربوي عند المسلمين

نطرح تساؤلا مركزيا نحاول الإجابة عنه من خلال هذه المحاضرة مفاده:

ما هي الأصول والينابيع المعرفية التي يتغذى منها الفكر التربوي في الإسلام ؟وتُسهم في صياغة نظرية تربوية متكاملة تسعى لبناء الأفراد والمجتمعات والدول؟

عالج الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي في كتابه أصول التربية الإسلامية هذه الإشكالية من خلال بيان ما تسعى إليه التربية الإسلامية لإعداد النائشة وفق ما يتناغم مع هويتهم الدينية وبيئاتهم الاجتماعية ،وهو ما وفّره الإسلام من خلال ما أرساه من تعاليم وقيم ومبادىء ،تهدف إلى حفظ المكلفين بحفظ المقاصد الضرورية الكبرى [حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال]،وهذه الكليات يُبنى عليها غيرها، أن مقصد التربية الإسلامية هو التنظيم النفسي، والاجتماعي الذي يؤدي إلى تشرب مبادىء الإسلام، والتحقق بتعاليمه في حياة الفرد والجماعة.وهي بهذا المعنى تهيئة النفس الإنسانية لتحمل أمانة التكليف، وهذا يعني بالضرورة أن تكون مصادر الإسلام هي نفسها مصادر التربية الإسلامية، وأهمها القرآن والسنة.

ويقدم لنا ماجد عرسان الكيلاني في كتابه[تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية] تعليلا لاعتبار المرجعية المعرفية للتربية الإسلامية مُستمدة من الوحي (الكتاب والسنة)،لكونها ((خطوط عريضة تسمح بالاجتهاد وتساير التطور وتلبي حاجات المجتمع لبناء نظرية تربوية ذات فلسفة متميزة وأهداف واضحة محددة،ونظام تربوي يهيء ناشئة المجتمع الإسلامي وبنيه ليجسدوا هذه الأهداف في وجودهم الخاص ،وفي تعاملهم مع الآخرين ،وتفاعلهم مع الأحداث والوقائع عبر الزمان والمكان.))

وعلى هذا الأساس يُشكل الوحي (الكتاب والسنة) القاعدة المعرفية والأصل المرجعي الرئيس للفكر التربوي في الإسلام .

ويُمكن أن تتحدد معالم هذا المرجعية في الأهداف التالية:

1.2..**مبدأ الاستخلاف:** وهو مبدأ رئيس أرساه الوحي من خلال بيان مقصدية خلق الإنسان ،لقوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:30) ،وقوله تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ الأنعام:165) ،وقوله تعالى :﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾النمل:62)

وقد ورد مصطلح الاستخلاف (بمرادفاته) ما يقرب من 16 مرة في القرآن الكريم (المعجم المفهرس) .

إن خلافة الإنسان على الأرض تقتضي تسخير كل ما فيه إعمارا وبناء واستثمارا في الميادين كلها (الأسرية والاجتماعية والسياسية) ،لذا جعل الله له أهلية التلقي عنه (الوحي + العقل باعتباره وسيلة لفهم النص) ،وهذه القابلية للتلقي كانت بفعل طبيعتين:

2.2.الطبيعة الكِيانية: وصورة خِلْقته (تراب+روح)،فجل الله له طبيعتين ،إحداهما تربطه بالعالم الأرضي (ترابه وطينته) والأخرى تربطه بالعالم العلوي النوراني (روح)،وهو ما صرّح به الله عزوجل بقوله :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:29).

وهو ما بينه الشيخ الأكبر مُحي الدين بن عربي حيث يرى أن الإنسان رابط للحقيقتين(الترابية والنورانية) صنعه الحقّ بيديه فكان مُضاهيا للأسماء الإلهيّة بخُلقه وللأكوان العلويّة والسّفليّة، بخَلقه جعله الله نائبًا عنه وسرًّا بين خلقه وهذا بسبب نظر الخلائق إليه قبل وُجُود مركّبه البهيم(الحيواني الترابي ،أي من جهة يتغذى وينمو).

3.2.تزويده بالاستعدادات: والقابليات والقدرات العقلية والنفسية والجسدية التي تمكنه من التلقي عن الله ،تحويل ما يتلقّاه إلى ممارسات تطبيقية عملية في الأرض ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:31) ،وقوله تعالى:﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (القلم:3-4-5) ، والقراءة هنا أمر بقراءتين وهو ما عبر عنه طه جابر العلواني في كتابه الجمع بين القراءتين (الكون المسطور والكون المقروء)أي دعوة إلى تدبر الوحي والتأمل في الكون ،لذا كانت أول آية في الوحي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ العلق /01-02 ،ففي ا آية تنبيه إلى وجوب قراءة الخلق وهي متوقفة على قراءة الذات الإنسانية باتجاه الكون والآفاق والانطلاق من المحسوس إلى المجرد أو من الأرضي إلى السماوي.

4.2.حرية الإرادة والاختيار:حتى يُمارس الإنسان وظيفته وعبوديته لله عزوجل على أكمل وجه.ويحقق وجوده القيمي والأخلاقي لترتب المسؤولية والجزاء على أفعاله بفعل قانون الإلزام الأخلاقي منحه الله حرية الإرادة والعمل والتطبيق،ووضع في طبيعة خِلقته الخير والشرّ ،وهو ما نص عليه القرآن الكريم الكريم:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:7-8)

وهذا الأساس محور مركزي تقوم عليه المنظومة الأخلاقية بأسرها ،وهو ما بينه عبد الله درّاز في كتابه دستور الأخلاق في القرآن الكريم ،فيقول:

[يستند أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم –في نهاية الأمر– على فكرة الإلزام l'obligation، فهو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته؛ وفناء ماهيتها؛ ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية، وإذا عدمت المسئولية، فلا يمكن أن تعود العدالة؛ وحينئذ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية]

فقولنا الإنسان الخليفة يتضمن الإنسان باعتباره كائنا أخلاقيا يخضع لمنظومة أخلاقية تحت مبدأ الإلزام الأخلاقي (افعل ولا تفعل على وفق ما تتحقق به ماهيته وسعادته ويؤدي وظيفة العبودية لله عزوجل) ،وقانون الجزاء الأخلاقي يتطلب المسؤولية والجزاء ،ولا يُمكن أن يترتب الجزاء على الفعل إلا على قاعدة مُبرّأة من الضغط والاكراه والجَبْر ،وهي من خصائص المنظزمة الأخلاقية في الإسلام ،فإذا تحققت المنظومة الأخلاقية سادت العدالة ،وإذا سادت تحققت حقيقة الاستخلاف ،وأصبح للعدالة مضامينها وتجلياتها على الفكر والحياة والأسرة والمجتمع والدولة.

5.2.انجذاب الإنسان إلى الفطرة: إن الإنسان بحكم خِلقته وبسر النفخة الإلهية مفطور على الانجذاب لله عزوجل وطاعة الله ومحبته ،والاتجاه إلى الخير والفضيلة والإيمان،والنفور من الكفر والرذيلة ،فالتوحيد هو الأصل ،وما عداه فهو عارض بسبب طمس الفطرة بفعل العوامل المختلفة ،لقوله تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:30)،وجاء في تفسيرها في البحر المديد لابن عجيبة :[فالأرواح، حين تركيبها في الأشباح، كانت قابلة للتوحيد، مُهَيَّأَةً له، بل عالمة به بدليل إقرارها به في عالم الذر، حتى لو تُركوا لَما اخْتَارُوا عليه ديناً آخر]،وعالم الذر هنا إشارة إلى آية الميثاق والعهد الذي أخذه الله على بني آدم جميعا قبل خلقهم وهم ذرّ في ظهر آدم عليه السلام :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:172)،ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة على لسان المؤمن الذي لم تتشوه فطرته وتذكر عهد ربّه: ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يس:22–23–24)

يُعلّق ماجد عرسان الكيلاني على ما ساقه من أسس الاستخلاف في القرآن الكريم بقوله:[هذا هو التصميم الإلهلي للنفس الإنسانية ،أما المعصية والرذيلة وانقطاع الصلة مع الله فلا جذور لها في التصميم والإيجاد الإنساني ،ومصدرها فترات الضغف والمرض النفسي أو العقلي التي تنتاب الإنسان من آن لآخر وتعيقه عن استعمال طاقاته واستعداداته وعن تنسيق وجوده مع القوانين والأقدار التي تنظم العوالمة المحيطة به ...وهذا التصميم الإلهي جزء من تصميم أكبر يشمل الوجود بأسره،فالكائنات كلها من جماد وحيوان وتبات منتظمة مع الإنسان تُعينه بشكل دقيق على أداء وظيفته وعبوديته لله عزوجل.]

6.2.العيش وفق الطبيعة:إن أداء مهمة الاستخلاف والعبودية لله عزوجل ليست تمردا على متطلبات النفس والجسد وانتصارا للروح ووأدً للشهوات ،فهي مُغالبة لطبيعة الخِلقة وثنائية التكوين (جسد وروح)،وأنما الإنسان بسر هذا التكوين متأرجح بين عالمين نوراني سماوي وترابي أرضي يوظفّ كلا منهما لأداء حق العبودية وإعمار الكون ،وإنما الإشكال في غلبة أحد العنصرين على الآخر ،فالمادية الرعناء المُفرطة مُهلكة والروحانية المتطرفة والرهبانية مُهلكة ومرفوضة أيضا ،وفي الحديث: «إن الرهبانية لم تكتب علينا»(أخرجه أحمد في مسنده عن عروة، كتاب باقي مسند الأنصار) .،ووفقا لهذه الطبيعة الكِيانية فالإنسان يسعى لتحقيق التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح ،وهو ما دعا إليه القرآن الكريم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:77).

ومن هنا يأتي دور التربية الإسلامية وفق ما قرره المختصون في الفكر التربوي بهدف تحقيق حفظ التوازن للإنسان بمراعاته مختلف حاجاته البيولوجية والنفسية والروحية والذهنية والأبعاد الجمالية ،وهي مندرجة جميعا تحت الأقسام الثلاث للمقاصد(ضروريات–حاجيات–تحسينيات)،فالمنهج التربوي الإسلامي مُتناسق مع طبيعة الإنسان وأبعاده المختلفة ،وقد استقى علماء المنهج التربوي فكرهم التربوي من تعاليم الوحيقرآنا وسنة ،فهذا النبي ﷺ يُجيب أولئك الشباب الثلاث الذين جاؤوا مجلسه ،وقال أحدهم أعتزل النساء ولا أتزوج وقال الثاني أصوم وأفطر ،وقال الثالث :أقوم ولا أرقد (وكلها أعمال فيها جنوح وإفراط وتفريط وانتصار للروح على حساب الجسد ،فعلمهم النبيﷺ المنهج التربوي الجامع بين الروح والجسد قائلا «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله

وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(البخاري عن أنس ،رقم:5063).

3.العوامل المُسهمة في إرساء الفكر التربوي عند المسلمين: أسهمت مجموعة من العوامل في بلوة الفكر التربوي في الإسلام ،وتأسيس رؤية متكاملة تستحضر المُعطى المرجِعي (الوحي) والمكلّف على حد سواء المرشّح للخلافة ،ويُمكن إجمال هذه العوامل في النقاط التالية:

1.3.العامل العقائدي: من خلال السعي إلى تحدي الصلة بين الخالق (المُربّي) وبين الإنسان المخلوق المُكلف ،والمضامين التي ترسم هذه العلاقة هي أركان الإيمان الستّ(المنظومة الغيبية).إضافة لأحكام الإسلام وشرائعه الخمس (أركان الإسلام)

2.3.العامل الاجتماعي: وقد تكفلت أحكام الشريعة الإسلامية بمضامينها الشرعية (المعاملات) في تنظيم حياة الناس من خلال المواثيق والعهود والعقود وإرساء نظام العدالة وسنّ العقوبات والحدود والتعازير وإرساء القيم الاجتماعية المختلفة(التعاون –التكافل –الرحمة)،وإرساء القيم السياسية (العدالة–الطاعة–الشورى).

3.3.العامل المكاني: وهو إشارة إلى المعمورة بأسرها (الكون) ،وهو فضاء لأداء العبودية (العبادات والمعاملات وإقامة العدل) وعمارة الكون ،وهو عامل مُسهم في البناء الحضاري وفق الرؤية الخلدونية ومعادلة مالك بن نبي الحضارية(إنسان+تراب+زمن=حضارة).

4.3. العامل الزماني: والمقصود به مراعاة عمر المتعلم في العملية والمنهج التربوي ،باعتباره المادة الخام التيمن خلالها يُمكن إعداد الناشئة للمستقبل ،وهو ما سنقف عليه بالتفصيل عند حديثنا عن أعلام الفكر التربوي في الإسلام.

هذا ما يتعلق بالأصول المرجعية للفكر التربوي في الإسلام ،وسنعالج في المحاضرة المقبلة (04) محور الفكر التربوي عند المسلمين نشأته وتطوره وخصائصه،ونحاول أن نجيب على سؤال مركزي مفاده: كيف بدأ وتبلور الفكر التربوي عند المسلمين؟ وما هي خصائصه ؟وما أبرز المراحل التي مرّ بها .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

نلتقي في المحاضرة المُقبلة /أستاذ المقياس د.قول معمر

ملاحظة : من أراد أن يوسع مداركه في مقياس المنهج التربوي عند المسلمين ،فليراجع كتاب ماجد عرسان الكيلاني (تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية موجود pdf وهو المرجع المعتمد).